الحلقة الثالثة

ثم .. ماذا عن استقراره فى عصر الإمارة

إنَّ مَن عاصر فترة الإقلاع وعبر دروبها وما عرفته من مَدٍّ وجَزْرٍ ، من دفاع عن المعاقل وتطلع إلى الامتداد والزحف ، سوف يتردد كثيراً حينماً يتطلع إلى ما سيأتى من أحداث حيث إن الإقلاع جمع بين قلاع للمجد وبؤر للضياع ، بين مَن يبحث عن الشهادة والاستشهاد ، ومَن يبحث عن الغنائم والمكاسب والاستبداد ، بين مَن يحمل راية شمولية أُمة ، ومَن يتقوقع فى العشيرة ويتقنع فى القبيلة ، وهكذا اقترب الأندلس فى بداية أبجديته من نصف قرن وهو فى أمس الحاجة لإعادة حساباته واحتواء ما مُزِّق ، وتهدئة مَن تشنج وانفصل ، فضلاً عن أن المحيط العام ما كان أبداً يؤهل الأندلس للانسجام والتجانس ، فهناك سقوط وقيام ، وهناك الباحث عن الثأر والمتطلع إلى البديل .

وكان عبور « عبد الرحمن الداخل » ، هذا الأموى – صقر قريش – كما لُقِّبَ بذلك، المتوفى عام ١٧٢ هـ (الموافق لـ ٧٨٨ م) بعد إمارة استمرت ٣٤ عاماً بدأت إمارته بدخوله قرطبة عام ١٣٨ هـ (الموافق لـ ٧٥٤ – ٧٥٥ م) منتصراً فى المعركة الفاصلة ، معركة المصابرة بجانب الوادى الكبير ، على ما تبقى من الولاة ، وفى نفس الوقت منتصراً فى بداية معركته مع الشتات والفتن والتفرق وتحزب العشائر والقبائل .

وهنا لا يمكن أن نستبعد ما كان يتحلى به من سمات القائد وتأهيل الرائد لتحمل المسؤولية ، أربع وثلاثون عاماً لعبد الرحمن الداخل حفلت بالصراعات المختلفة من الداخل والخارج ، فهو على رأس جسد تتصارع جزئياته ، وعليه أن يُؤمِّن له الحد الأدنى من التجانس والانسجام ضماناً لاستمرارية الإمارة من الداخل ، وعليه أن يحميها مما يُدبَّر لها خارجياً من أبناء عمومته وأعدائه على حد سواء ، وحينما نذكر أبناء العمومة ، نعنى الأقربين شركاء الملة والدين

والمصير المشترك فى ديار الإسلام ، فالخلافة العباسية لم تتوقف فى بداية حكمه من توظيف كل ما لديها من وسائل للإيقاع به مستغلة طبيعة التنوع فى الانتماءات بين العشائر والقبائل ، وبالتالى التنوع فى الولاء .

فإن كان هناك مَن يتقبل المنتصر وصاحب السُلطة متعاوناً ، متكاملاً ، متضامناً ، فهناك مَن يتقبله إذعاناً وامتثالاً لسطوته فى انتظار غد أفضل ، مترقباً لتداول الأيام ، متلمساً لأى فرصة ضعف أو خلل ليستعيد من جديد ما أفتقد ، وإن كنا بدأنا بالحديث عن ذَوى القُربَى ، « وظلم ذوى القُربَى أشد .... » مع تسليمنا ضمنياً بما بين الدولة العباسية والأموية من تصفية لحسابات مترسبة .

غير أن الذى يلفت النظر ويدعو للتساؤل فى حوار حول الحاضر فى الماضى ما ذُكِرَ لدى البعض من تكامل ضمنى فى العداء لهذا الذى صارع فى بلاط الشهداء وما زال يطمع فى الاسترداد لما زحف عليه من أرض باسم الإسلام ، وهنا يرد فى الذاكرة هذا التعبير الذى يحاول البعض أن يبرر به المواقف الغير القابلة لأى تبرير وبدون حيثيات موضوعية ، ونعنى بذلك : « لنتحالف مع الشيطان فى سبيل هزيمة الخصم وإيقاع الشر به ولو كان شقيقاً » .. إن كنا لا نتقبل هذه الفرضيات بقلب رضى لأننا نبرأ بأى خليفة مسلم أن يصل فى ثأره إلى حد التنكر لصلة الرحم ، فضلاً عن العقيدة والإيمان ، لذا كان طبيعياً أن نجد هذا العباسى الذى قيل إنه تحالف مع الشيطان ولو كان ممثلاً فى عدو الإسلام ، نجد لدى البعض مَن يميل إلى أن نعت عبد الرحمن بهذه التسمية التى تضاف دائماً إلى ذاكرة التاريخ : « صقر قريش » ، كانت عباسية من خليفة عباسى ، على أية حال واجه عبد الرحمن الداخل فى كل الجبهات ورغم كل الأعاصير والرياح المتعددة فى مخارجها . واستقر هذه الفترة من السنين الطوال يعيد صياغة الإمارة ليس فقط على مستوى فئاتها البَشرية ، وإنما على مستوى بيئتها العمرانية والحَضَرية .

فهو الذى وفى أواخر أيامه يُذكر له - من بين ما يُذكر - تأسيسه لجامع قرطبة ، فضلاً عن قنوات الماء وتشييد بعض المعالم العمرانية بجانب قرطبة ، ويُذكر له الكثير والكثير ، فقد كان أميراً شاعراً بين الحين والحين ، يجالس الشعراء فى بلاطه أمثال أبو المخشى بن حنظلة التميمى الذى بكى فى أبيات مثيرة بصره الذى أطفأ نوره أمير أموى عقاباً له لميله إلى أخيه ، ووجدت المذاهب الفقهية أرضاً خصبة فى هذه الفترة .

ولقد كان أهل الأندلس أول الأمر « أوزاعيين » - نسبة للإمام الأوزاعى - ثم مالكيين بعد أن حمل المذهب إليهم شفطون بن عبد الله ، أو الغازى ابن قيس والذى - حسب ابن القوطية - قد أدخل الموطأ إلى الأندلس فى عهد عبد الرحمن أو بفضل نفر من الفقهاء ، وقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع والاجتهادات ، ومن ثَمَّ اختار هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) للوظائف الدينية فقهاءَ مالكيين ، فانتشر المذهب وكان له أثراً كبيراً فى التطور الفكرى والثقافى فى الأندلس .

ولقد عرفت بداية حكمه القلاقل والفتن ، سواء من داخل أسرته الحاكمة مع إخوته أو ما عُرفَ بالحزب اليمنى . ولقد استطاع أن يتجاوز بحزمه هذه الفتن والقلاقل ، فضلاً عن نشره اللُغة العربية فى مناحى مختلفة بما فى ذلك معاقل النصارى .

ويحاول البعض أن يتلمس الأعذار للفتن التى قام بها النصارى فى قرطبة وواقعة الخندق فى طليطة وغيرهما على أنها انعكاسات لما اتصف به هذا المذهب المالكى من صرامة فى الالتزام ومقاومة البدعة ، ومهما يكن فإن ما حدث من تطور فكرى وثقافى خلال هذه الفترة التى حكم فيها هشام بن عبد الرحمن أو الحكم بن هشام من بعده المعروف بالربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م) لا يمكن أن يقارن بالفترة التى تلت بعد ذلك فى عصر عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) رغم ما شهده عصر هشام بن عبد الرحمن من تعبئة للفتوحات مثل حركات الطوائف التى اخترقت جبال الرينية .

أما عبد الرحمن الثانى - أو الأوسط - فقد كان أميراً بدوره محباً للشعر وإن كان قد وُصِفَ بأنه لايتمتع بشخصية قوية ، فأشرك معه فى أمور الإمارة الفقيه يحيى بن يحيى ، وحتى طروب - وهى أحب نساءه إليه - وزرياب المغنى ، ويُذكر له أنه أسس مدينة « تورسيا » ، وأحدث دار السكة فى قرطبة ، وصك النقود باسمه ، وعُرِفت أيامه بأيام العروس ، كما أنه شيَّد الأساطيل البحرية لحماية الثغور من القراصنة . وقد كان زرياب يتمتع بشخصية متميزة تركت بصماتها على بلاط عبد الرحمن الذى اتجه به إلى ما كان عليه الحال فى المشرق من ترف ورفاهية .

فقد استهوى زرياب أهل قرطبة بفنه وبما قدَّمه من نمط فى الملبس والسلوك ، بل حتى فى الولائم والمناسبات ، وبات مقلَّداً محاكياً ونموذجاً يُحتذى به فى المدينة ، وفُتِحَت قنوات الإبداع الأدبى بل والعلمى - فضلاً عن الفنى - فى قرطبة والأندلس لتنافس دمشق وبغداد .

وهكذا برزت أسماء شعراء أمثال يحيى بن الحكم بن الغزال ، وقد نعته ابن حيان بأنه حكيم الأندلس عارفها وشاعرها ، فضلاً عن قيامه بعمل السفارة للأمير عبد الرحمن سواء فى القسطنطنية أو لدى مَن كانوا يعرفون بالمجوس الفنكين السمالين ، وما رُوِىَ عن رحلته هذه كأحداث ووقائع وصف معمق لطباع « الفانكين » وتقاليدهم وعاداتهم . كذلك يُذكر من الشعراء فى بلاط عبد الرحمن الأوسط « تمام بن علقمة » صاحب الأرجوزة الطويلة التى نظمها حول افتتاح المسلمين للأندلس ، كذلك حسانة التميمية بنت الشاعر أبى الحسين ... وغيرها وغيرهم الكثير ، فضلاً عن مَن عُرِفَ من الفقهاء واشتُهِروا فى ذلك الوقت وجلهم مالكين أمثال « ابن المجاشون » وأصبغ بن الفرج ، وعبد الملك بن حبيب .

Obeikandi.com

وفى ذلك الحين كان عنصر المستعربين على وشك أن يتلاشى ويختفى فى العنصر العربى ، ولم يبق لنا منه إلاَّ نماذج محدودة مثال « الأسقف بنجنسيس » ، ومع هذا لم تخل هذه الفترة من الصراعات الدينية المقنَّعة والتيارات المدمرة التى تعمل فى الظلام ، خصوصاً عبر حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) حيث شهد عصره تيارات متعددة تجسد الخروج عليه وعدم الإذعان لسلطته سواء من رعاياه من النصارى أو حتى من المسلمين العرب والموَلَّدين أمثال بنى قسى سادة أرغوت ، وعبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وعمر بن حفصون .

وهذا الأخير تولى قيادة المستعربين فى جنوب الأندلس ، ورغم أن هذا الأمير « محمد بن عبد الرحمن » قد لجأ لشيخ قبائل العرب رؤسائهم كى يساندوه فى مواجهة الخارجين على سلطانه ، فما كان منهم إلا أن استغلوا ضعفه ومكنوا أنفسهم على حسابه فى نواحيهم ، وهكذا بزغت نزاعات بين هذه الطوائف من عرب الأندلس وعصر الإمارة القرطبية تذكرنا بما حدث فى بداية فتح الأندلس وعصر الولاة ، بل كاد هذا النزاع والتطاحن أن يقضى على إمارة قرطبة فيما بعد .

وهكذا أهلت هذه الفترة لإرهاصات عصر الطوائف أو الدويلات الصغيرة سواء مَن تولاها من الموَلَّدين أو البربر أو العرب ، ولا يمكن تجاهل أيضاً الدور السلبى الذى كان يقوم به وزير هذا الأمير محمد - من سوء تعامل مع الرعية مما زاد فى اتساع حلقة العصيان .

وهذا ما يؤكد أهمية دورالحاشية فى تدعيم قيادة الأمة أو إضعافها ، ولم تقف الفتن والثورات عند حد ما كان يغلى فى داخل الإمارة فى مختلف نواحيها ، وإنما أضيف إليه هموم خارجية من المتطلعين لاقتناص الفرص وإعادة الكرَّة بالمواجهة مع المسلمين ، فضلاً عن هجمات القراصنة الشماليين الفانكيين ممن عُرِفوا آنذاك بالمجوس ، وكثيراً ما كانت لا تقف قرصنتهم عند حد المناطق الشمالية بل حتى الجنوب ، « الجزيرة الخضراء » التى أُحرِقَ مسجدها ، بل وحتى المغرب .

وكان هؤلاء القراصنة يواجهون بمقاومة صارمة من حصون السواحل ، فيردون على أعقابهم خاسرين ، أو مكررين المحاولة عندما تتاح لهم الفرص من جديد ، وهذا بدوره يذكرنا بما كان يحدث فى بعض المناسبات من إرسال السفراء لإيقاف هذه الهجمات ، وطرح التفاهم وتبادل الهدايا بدلاً من إراقة الدم والتخريب والتدمير .. كمجرد مثال : سفارة يحيى الغزال نحو الشمال .

هذا الجو الخانق والعامر بالفتن والمشبع بالهموم لم يمنع الأمير محمد بن عبد الرحمن من أن يعطى جانباً من اهتمامته للبناء والتشييد على مستوى الحصون والعمران ، بل وتهييىء الجيوش فيما يُعرف بالطوائف لاستكمال رسالة الإسلام فى صده إلى بقية الشعوب ، واقتدى به فى ذلك أيضاً ابنه المنذر ساعده الأيمن ، ولم يكتف بتعبئة هذه الجيوش ، بل كثيراً ما كان يتولى قيادتها ، ويُذكر أيضاً لهذه الفترة انتشار الفلسفة (ابن مسرة) ، كما يُذكر أيضاً ظهور عقليات متميزة كعباس بن فرناس العالم ، الفلكى ، الرياضى ، ولِمَ لا ؟ المخترع ، ومولد « ابن عبد ربه » صاحب العقد الفريد وشاعر البلاط الذى عمر حتى عصر الخلافة ، وتميزت أيضاً هذه الفترة بنوع من التفتح على الآخرين من أهل الذمة مما أثار بالضرورة جانباً من الساهرين على الالتزام بصرامة العقيدة وتحفظهم على استخدام النصارى فى بلاطة الإمارة وتولى المناصب ، وإن كان هذا ليس بغريب على الأمويين فى المشرق كما فى الأندلس ، وكانت تربط هذا الامير علاقات حسن الجوار ، ولِمَ لا ؟ الإخوة فى الدين مع المغرب (بين رستم وبنى مدرار) ، ومع أن عصر محمد بن عبد الرحمن شغل حيزاً لايُستهان به زمنياً ، إذا ما قيس بغيره من الأمراء ، خصوصاً مَن تولى بعده كابنه المنذر الذى لم يعمر طويلاً .

فقد حكم ما بين (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م) عامان من الفتن والمواجهات ، ولم يكن غريباً أن يموت هذا الأمير وهو يراقب الحصار الذى كان يقوم به ضد الخارجين على المشروعية والسُلطة من الثوار ومروجى الفتن ، وما أكثرهم آنذاك ، وعلى رأسهم ابن حفصون الذى وصل فى خروجه إلى تهديد العاصمة « قرطبة » ... وغيره وغيره الكثير ممن أعمتهم شخصنة وشهوة السلطة عن رسالتهم الأساسية وهى الالتحام تحت راية الإسلام .

وليس غريباً على هذا - ابن حفصون - الذى بعد هزيمته على يد الأمير عبد اللّه ابن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) عاد لينشق ويخرج من جديد حين علم بوفاة الأمير ، هذا الأمير الذى بالتقوى ولم تشغله الفتن والحروب من أن يهتم بالشعر والشعراء ، فقد كان هو شاعراً محباً لما هو جميل فيه ، كما اهتم بالفكر والعمران ، فهو البانى لمدينة « بجانة » ، وفى عصره لم يمارس الشعر فقط ، بل كان الإبداع فيه حيث أنشىء الزجل والموشحة مع « مقدم ابن معافى القبرى » الضرير (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) كما هو معروف .

ومن ثَمَّ كان عصر الإمارة انتهى بنهايته ، ولكنه ترك لنا من العمران ومن الفنون والإبداع الفكرى ما يجعلنا الآن وبعد هذه القرون نحتفظ بذكرى ما جدد وأنشأ ، بقدر ما نستخلص العبر والدروس مما كان من خسران ، ونتمنى أن لايستمر طويلاً بنا عبر الدهر ، من مواكبة الفتن والمؤامرات والانشقاق على المشروعية والتعصب وكل ما هو مذموم ومنهى عنه بنص الشريعة بمعنى نص الإسلام .

وبالتالى فليس بغريب أنَّ هذا المنهى عنه حينما يُباشَر ويُطبَّق يجسد انتكاس الأمة التى تنكرت للمبادىء التى من أجلها ، ولها ، وبها قامت وأسست ، لم تنته الإمارة وإن كنا قد دخلنا فى مرحلة أخرى من مراحل الأندلس ، حلَّت فيها الخلافة بدلاً من الإمارة ، وعرفت بدورها كما سنرى قلاعاً من المجد ممثلة فى إقلاعها مع عبد الرحمن الناصر كما سنرى ، عرفت أيضاً تعميق بؤر الضياع واستمرار مواكب الفتن المقنَّعة والتى تحبو لتطفو وتواكب الأندلس فى كل مسيرته ورحلته ، وهذا ما سوف نلاحظه فى الحلقات التالية ، وننتقل أولاً إلى الخلافة .

* * *